



الاستبداد في الحب غير الاستبداد في الحكم، والاستبداد في الرأي غير الاستبداد في الفعل، الأرجح أن الخطر الحقيقي لا يكمن في الاستبداد نفسه بقدر ما يتمثل في مناورات إخفائه لتمنيع مواجهته، وكذلك في العجز عن التفارقة بين ضرورته المبدئية، ومضاعفاته الخطيرة. الشائع المتواتر عن "الاستبداد/القهر" هو أنه يتم بفعل فاعل من جانب واحد، لأننا نهمل النظر إلى الجانب الآخر "المفعول به" مع أنه لا تقل مسؤوليته عن الجانب الفاعل في ظهور الظاهرة وتماديها، مع أنه يدفع ثمنها أفدح وأصعب.

إن المستبدّ، والمستبدّ به، شريكان في ظهور واستمرار الظاهرة بالرغم من اختلاف مسؤولية كل منهما، وأيضا برغم اختلاف مضاعفات الظاهرة لدى كلٍّ، المستبدّ به يدفع الثمن غالبا: قهرا واستهانة وتهميشا حتى الإلغاء، والمستبدّ يدفع الثمن وحدهً واعترايا وانقسامًا وتفريغا من الداخل، ثم ضياعا للإنسانيا في نهاية المطاف.

هذا بالنسبة للشائع عن مضمون لفظ الاستبداد حاليا كما يستعمل في مجالات السياسة، والحكم، والمعارضة، والتحريض، أما عن أصل الاستبداد في جذور الطبيعة البشرية، فلعل اللغة العربية - قبل العلوم النفسية - قد استطاعت أن تلتقط وتستوعب هذه الجذور لتضمّنها هذا اللفظ، حين نستقرئ اللغة دون تحيز سابق، ودون غلبة ما شاع عن اللفظ أخيرا، نفاجا بأن أصل لفظ الاستبداد في ذاته بريء مما احتواه لاحقا من مضامين. نحن نقصر استعماله حالا على ما هو قهر وظلم وغطرسة واستعلاء، في حين أنه أصلا يشير إلى الانفراد والغلبة. في أساس البلاغة: (استبد بالرأى انفرد به)، وفي "تاج العروس" (استبد فلان به أي "تفرّد به دون غيره"، وفي لسان العرب "واستبد برأيه انفرد به". فإذا انتقلنا من الرأي والشخص إلى الأمر والفعل، فإن المعنى يتحرك إلى ما نسميه الآن: "حكم الفرد" أو "الحكم الشمولي"، ففي حديث على رضي الله عنه (أشار إليه ابن منظور وذكر نصه الزبيدي)... "كنا نرى أن لنا في هذا الأمر حقا فاستبددتم به". ثم إنه كما يستبد الشخص بالأمر يستبد الأمر بالشخص "استبد الأمر بفلان إذا غلبه فلم يقدر على ضبطه"، حتى أن الاستبداد يكون إيجابيا حين يكون حزمًا مطلوبًا،... "إذا عزم على أمر أمضاه ولم يثته عنه شيء" (أساس البلاغة).

يمكن أن نحدد منطلقاتنا في الحديث عن الاستبداد على محاور عدة:

أولا: تطور مراحل الاستبداد.

ثانيا: المسؤولية المشتركة في عملية الاستبداد.

ثالثا: تجليات الاستبداد.

وأخيرا: جدلية الاستبداد والاستضعاف.

تطور مراحل الاستبداد:

الأرجح أن الخطر الحقيقي لا يكمن في الاستبداد نفسه بقدر ما يتمثل في مناورات إخفائه لتمنيع مواجهته، وكذلك في العجز عن التفارقة بين ضرورته المبدئية، ومضاعفاته الخطيرة

الشائع المتواتر عن "الاستبداد/القهر" هو أنه يتم بفعل فاعل من جانب واحد، لأننا نهمل النظر إلى الجانب الآخر "المفعول به" مع أنه لا تقل مسؤوليته عن الجانب الفاعل

إن المستبدّ، والمستبدّ به، شريكان في ظهور واستمرار الظاهرة بالرغم من اختلاف مسؤولية كل منهما

المستبدّ به يدفع الثمن غالبا: قهرا واستهانة وتهميشا حتى الإلغاء، والمستبدّ يدفع الثمن وحدهً واعترايا وانقسامًا وتفريغا من الداخل، ثم ضياعا للإنسانيا في نهاية المطاف.

في "تاج العروس" (استبد فلان به أي "تفرّد به دون غيره"، وفي لسان العرب "واستبد برأيه انفرد به"

إنه كما يستبد الشخص بالأمر

يستبد الأمر بال شخص "استبد الأمر بفلان إذا غلبه فله يقدر على ضبطه"

إذا كان صاحب هذا الرأي المستبد ذا سلطة محدودة (والد أو مدرس مثلاً) فقد انتقلنا إلى احتمال الاستبداد "بالأمر" أو "بالفعل" حين يفرض هذا الرأي - تنفيذاً - على غيره من الأضعف والأحوج

إن قائد مجموعة من الثوار حين يستبد برأيه في اجتماع سرى محدود أثناء فترة الإعداد، قد يكون على حق وهو يمارس اختراقات التردد ليتغلب على بليلة التخوفات، أو ميوعة الأغلبية

هذا القائد نفسه حين يستبد برأيه بعد أن يتولى السلطة، ويملك ناصية الفعل والفرص بشكل شامل، يصعب استبداده برأيه مجلبة لمصائب ليس لها علاقة لا بالثورة ولا بإيجابيات التفرّد

لا أحد يولد فرعوناً، حتى لو كان ابن فرعون، إن التفرّع ينشأ من الاحتياج إليه، ثم إنه يتمادى بفضل من يسمع به، ويزكّيه وينمّيه

لقد فرق القرآن الكريم بشكل حاسم بين الضعف والاستضعاف

أن قبول الظلم هو إسهام في تحقيقه وتماديه

يبدأ المستبد باختبار مجال سلطته بقرون استعمار ترصد

أن تستبد برأيك بدء ولادته حتى لو كان ذلك في عمق اللاوعي، هذا أمر وارد، بل هو مطلوب، وإنكار ذلك مخالف للطبيعة البشرية، ومضيق لفرص الحوار الحقيقي، لا أحد يبدأ - داخل نفسه - إلا من موقع متفرد محدد جداً، وبذلك يمكنه أن يكون متيقناً من نقطة انطلاقه، مستبعداً غيرها، حتى إذا لم يكن هذا الموقف المحدد بادياً في ظاهر الشعور، فإنه يظل حاضراً في عمق الوعي، حتى لو تخفى وراء ظلاله من ميوعة الغموض وادعاء قبول الآخر، وزعم الحرية دون شروط، فإذا ظهر هذا الموقف المستبد (المتفرد) على سطح الوعي، فهو الرأي البدء القابل للحركة والجدل والتحريك والمواجهة، ذلك أنه بعد ذلك - بعد ظهوره - يصبح في متناول وعى الآخر، كما يدخل اختبار واقع ملموس، فإذا استمر - برغم ذلك - كما هو بنفس التفرّد والصلابة، لا يهتم برأى الآخر، ولا يتطور إلى ما يطوره من واقع الواقع، فهو الاستبداد بالرأى (وليس الاستبداد البدء) وهنا يمكن أن يوصف بالتعصب والعمى والتحيز والجمود.

فإذا كان صاحب هذا الرأي المستبد ذا سلطة محدودة (والد أو مدرس مثلاً) فقد انتقلنا إلى احتمال الاستبداد "بالأمر" أو "بالفعل" حين يفرض هذا الرأي - تنفيذاً - على غيره من الأضعف والأحوج. أما إذا كانت سلطته شاملة تمتلك أسلحة الإغارة على الوعي (الإعلام) وعلى الفعل (الاستغلال والاستعمال بالمال والسلطة) فهو الاستبداد الشمولي، والدكتاتورية، وما هو مثل ذلك.

نحن لا يمكن أن ننكر أن في هذه النظم المسماة استبدادية - خصوصاً في بداية انطلاقها - ما يشير إلى إيجابية ما (لعلها تتوازي مع بعض ما لاحظناه من استقرار اللغة) لكن المصيبة الكبرى تتحقق من خلال آليتي "التمادى" و"التعميم". إن قائد مجموعة من الثوار حين يستبد برأيه في اجتماع سرى محدود أثناء فترة الإعداد، قد يكون على حق وهو يمارس اختراقات التردد ليتغلب على بليلة التخوفات، أو ميوعة الأغلبية، لكن هذا القائد نفسه حين يستبد برأيه بعد أن يتولى السلطة، ويملك ناصية الفعل والفرص بشكل شامل، يصبح استبداده برأيه مجلبة لمصائب ليس لها علاقة لا بالثورة ولا بإيجابيات التفرّد. هنا ننتبه إلى أن العيب ليس في فكرة الانفراد ذاتها، لكنه في الخلط بين الحاجة إلى بداية تحتاج إلى الحسم الجسور، وبين التمدادى في فرض الرأي على الجميع من موقع السلطة:

تطور المسؤولية المشتركة:

لا أحد يولد فرعوناً، حتى لو كان ابن فرعون، إن التفرّع ينشأ من الاحتياج إليه، ثم إنه يتمادى بفضل من يسمع به، ويزكّيه وينمّيه. يبدو أن هذا هو بعض ما نمى إلى وعى الشعب المصرى وهو يطلق مثله الشهير "قالوا لفرعون ايش فرعك، قال: ما لقيتش حد يردنى".

من حيث المبدأ يكاد يستحيل تصور أن ظاهرة بهذا التعقيد، وهذا التمدادى يمكن أن تظهر وتستمر إلا في مناخ يسمح بها، وأحياناً يباركها، المستبدُّ به يشارك في إرساء قواعد الاستبداد بالضعف، والاستسلام، والاعتمادية والتخلى عن حقوقه. لا عيب في الضعف باعتباره مشروع القوة القادمة، لكن العيب في الاستضعاف.

لقد فرق القرآن الكريم بشكل حاسم بين الضعف والاستضعاف. احترم الضعف وغمر أصحابه بالرحمة والعفو (يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا)، (الآن خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا) لكنه نبّه إلى خطورة ومسئولية المستضعفين، وأنهم ظالمو أنفسهم (إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا) - ومع الاختلاف حول معنى "أرض الله" ومعنى "الهجرة" فإن الآية الكريمة صريحة في التنبيه على رفض التسليم، من حيث أن قبول الظلم هو إسهام في تحقيقه وتماديه.

الخطر:

الخطر الحقيقي - هو في التمدادى بعد مرحلة الاستبداد بالرأى إلى الاستبداد بالفعل. يتم ذلك

ليس فقط من خلال غطرسة وقهر المستبد المتزايدة، ولكن أيضا باستمرار المستضعف في الاستسلام الفعلي، حتى لو جأراً بالشكوى. إن آلية الاستبداد وآلية الاستضعاف تغذى بعضها بعضاً. يبدأ المستبد باختبار مجال سلطته بقرون استشعار ترصد نوع تلقى استبداده، فإذا وجد تراجعاً تقدم، ثم يتواصل تمادى الاستبداد وانتشاره مع تمادى الاستضعاف والاستسلام والتراجع، وهنا يصل المستبد إلى الخدعة الكبرى، فبدلاً من أن ينتبه إلى الخطر الذي يحيق به قبل ضحاياه، إذا به ينخدع فيتصور أن هذا النجاح الزائف هو نتيجة صفاته المتفردة، فهو يستشعر آنذاك في نفسه قوة غير حقيقية، ويغيب عنه أنها ليست سوى محصلة عماءه الذي تضاعف مع تهاوى المقاومة التي كان يمكن أن تفيقه.

مسلسل التمادى:

تقول الآية الكريمة في فرعون موسى: "فَأَسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَاطَّاعُوهُ"، يصلنى من هذه الآية أيضا صحة عكس الاتجاه، بمعنى يفيد أن القوم حين أطاعوا الفرعون، استخفهم، ثم إنه استخفهم أكثر فأطاعوه أكثر. هكذا نفهم كم أن التمادى المغلق الدائرة المتفارق التصعيد، هو سر دوامية الاستبداد وتعاضم مضاعفاته.

إن غياب المقاومة الحقيقية بكل صورها، من أول فاعلية أحزاب المعارضة التي لا بد وأن تعد (أو تهدد) بتداول السلطة، حتى ضغط الرأى العام بكل الصور المشروعة، والمهددة باختراق الشرعية، غياب كل ذلك هو الذى يشجع الحكام المستبدين على الاستخفاف بالمستضعفين، ومن ثم التهميش، حتى الإلغاء تماماً.

وغداً نكمل عن تجليات الاستبداد وتبادل الأدوار (2 من 2).

نوع تلقى استبداده، فإذا وجد تراجعاً تقدم، ثم يتواصل تمادى الاستبداد وانتشاره مع تمادى الاستضعاف والاستسلام والتراجع

يصل المستبد إلى الخدعة الكبرى، فبدلاً من أن ينتبه إلى الخطر الذى يحيق به قبل ضحاياه، إذا به ينخدع فيتصور أن هذا النجاح الزائف هو نتيجة صفاته المتفردة

أن القوم حين أطاعوا الفرعون، استخفهم، ثم إنه استخفهم أكثر فأطاعوه أكثر

هكذا نفهم كم أن التمادى المغلق الدائرة المتفارق التصعيد، هو سر دوامية الاستبداد وتعاضم مضاعفاته

[1]- نشرت في مجلة العربى الكويتية، عدد أبريل-2004

*** **



النشرة اليومية "الإنسان و التطور"

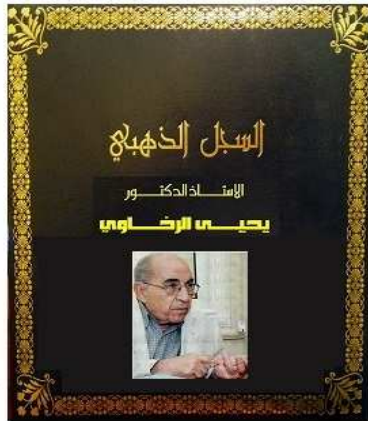
تدخل عامك التاسع

وتطفئ شمعتك التامة



أجمل

التكافى



التكريم الحقيقي هو

أن تصل الكلمة إلى أصحابها...

وحكى نشارك الجميع في هذا النكريع ادمو من كل من عرف
الإسناذ البخاوي (- إنسانا إسناذ عالم طيبا اديبا صاحباً آخا إبا زوجا
رفيقا زميلا...) - إن "يدون كلمة" في حق هذا المالع العربي / العالمى
الكبير...